تطور العمائر الاسلامية بتطور وظائفها

بقـلم

د. سعاد ماهر

من الثابت أن الفن الإسلامى التشكيلى قام على أسس من فنون البـلاد التى فتحها المسلمون أو خضعت لهم، ذلك أن طبيعة شبه الجزيرة العربية الصحراوى، وانتقال البدو من مكان إلى آخر سعياً وراء الـكلأ والمرعى لم يكن ليساعد على قيام فنون تشكيلية، اللهم إلا فى أطراف شبـه الجزيرة ، كالمناذرة المتاخمين للدولة الساسانية ، والغساسنة المجاورين للدولة البيزنطية ، واليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبـــه الجزيرة. حيث قامت فنون ضارعت فنون معاصريهم من الفرس والرومان .

على أن الفاتح العربى لم يقبل كل ما وجده من تلك الفنون على ما هـو عليه ، بل استبعد منها ما كرهه الدين أو مالا يوافق مزاجه الخاص ، ثم جمـع ما اختاره منها وصهره فى بوتقة بعد أن طبعه بطابعة الخاص، الا وهو الـكتابة العربية. وهكذا نستطيع القول أن الفن الاسلامى أخذ قوامه الروحى من وسط شبه الجزيرة العربيــة ، أما قوامه المـادى فقد تم صوغه فى أماكن أخرى كان للفن فيها قوة وحياة .

ولعل أبرز فروع الفن الإسلامى التى تأثرت بالجانب الروحى، هى العمارة، التى عنى المسلمون الأوائل أن تـكون مهمتها الأولى خدمة الدين، ومن ثم فقد تطورت العمائر الدينية تطورا سريعا ساير ركب الحضارة الإسلامية الفنية، فتعددت أشكالها وأساليبها تبعا لتعدد وتغير وظائفها .

وقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد والأربطة فالمدارس والمصليات والخوانق والأسبلة والتـكايا . على أننا إذا أردنا أن نتتبع تطور العمارة الإسلامية وجـــدنا أن المسجد حجر الزاوية فيها .

ولقد كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين فى مربد التمر الذى بركت فيه ناقته. وكان بناؤه بدائيا بسيطا ، وكانت مساحته ٧٠ × ٦٠ ذراعا وجدرانه من اللبن ، سقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوفا وجملت عمد المسجد من جذوع النخل .

وقد نهج المسلمون هذا النهج فى بناء مسجد البصرة سنة ١٤ هـ ومسجد الكوفة سنة ١٧ هـ ، كما اتبع عمرو بن العاص هذه السنة فى بناء مسجده فى مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ. وكانت مساحته وقت انشائه ٥٠ × ٣٠ ذراعا وجدرانه من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وتسوده البساطة . وكانت مساجد البصرة والكوفة ومصر خالية من المحاريب المجوفه ومن المنابر والمآذن على غرار مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ له منبرا فى مسجده . كتب إليه الخليفه عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له : «أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك» فكسره ، ولم يقتصر اتباع السنة فى ذلك الوقت على بناء المساجد فحسب بل تعداه إلى الدور والمنازل ، فقد حدث بعد وقوع الحريق بمدينة الكوفة أن أرسل سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب وفدا يستأذنه فى البناء باللبن فقال عمر «افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات (غرف) ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة» .

وكان المسلمون فى العصر الإسلامى الأول يقتصرون على استعمال كلمة المسجد لأماكن العبادة. والمسجد فى اللغة هو الموضع الذى يسجد فيه، فلما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وزاد عدد المسلمين بزيادة من دخل فى الاسلام من أهل البلاد التى فتحها المسلمون ، تعددت المساجد فى البلد الواحد، كما تعددت الألفاظ التى تطلق على أماكن العبادة فأصبح هناك مسجد وجامع . والجامع هو نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس ويطلق على المسجد الكبير . وفى ذلك يقول المقريزى :

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة

انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا ـ فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدى فى المسجد الجامع[1] .

ومن ثم فقد أصبح للفظ الجامع مدلول سياسى فى عهد الدولة الأموية فقد عرف بالجامع ، المسجد الذى يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين فى صلاة الجمعة أى أن لفظ الجامع أصبح يطلق على مسجد الدولة الرسمى الذى كان يعرف باسم المسجد الجامع .

وبطبيعة الحال لم يبق تخطيط المسجد على ما كان عليه فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، بل أخذ يتطور ويساير ركب الحضارة الإسلامية ، فقد رأت الدولة الأموية أن لا تقل مبانيها ، الدينية بصفة خاصة ، قيمة وقدرا عن المعابد المسيحية واليهودية فى مصر والشام ومن ثم فقد بنى المسجد الأموى بتخطيط وأسلوب يختلف عن تخطيط المساجد الأولى ، وكان ذلك لضرورة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة والشعوب ذات الحضارات والفنون التشكيلية المتقدمة التى دخلت فى الاسلام ، وأصبحت تكون عناصر هامة فى الامبراطورية الاسلامية الناشئة .

هذا ولم تقتصر وظيفة المسجد فى المجتمع الاسلامى الجديد على تأدية الصلاة فحسب بل كان يؤدى عدة وظائف أخرى لعل أهمها الناحية الثقافية ، ففى أروقته وحول أعمدته تعقد حلقات الدرس والوعظ والارشاد . كما كانت تعقد فيه الجلسات لفض المنازعات الدينية والمدنية ، كذلك كان به بيت المال كما كان الحال فى المسجد الأموى وجامع عمرو ، وفيه كان جلوس متولى الحسبة . من هذا يفهم أن المساجد فى العهد الأموى وأوائل العصر العباسى ، على أقل تقدير كانت تمثل دور الحكومة فى مفهومنا الحديث ، إلى جانب وظيفتها الأساسية الدينية . وبديهى وقد أصبح المسجد يؤدى خدمات ووظائف متعددة تختلف باختلاف الشعوب والبيئات أن تتعدد الأساليب المعمارية فى بناء المساجد ، وإن اتخذت جميعها مقومات العمارة الاسلامية وجوهرها . فقد كانت معظم المساجد حتى القرن الرابع الهجرى تحتوى

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٤٦

على صحن مكشوف تحيط بة الأروقة من ثلاث جهات أو من جهتين على أن يكون أكبر الايوانات هـو رواق القبلة لأهميته كما احتوى كل مسجد على محراب ومنبر ومئذنة وفى كثير من الأحيان على ميضأة .

أما تخطيط المسجد ، فكان غالباً مربعاً فى العراق وإيران ومستطيلا فى مصر والشام وشمال أفريقيا . وتعليل ذلك سهل ميسور ، فأماكن العبادة السابقة على الإسلام فى بلاد ما بين النهرين كانت ذات تخطيط مربع ونعنى بها (الاتش جاه) أى بيت النار ، أما فى غرب العالم الإسلامى حيث كانت تسوده المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بدأت تظهر فى شرق العالم الإسلامى أسماء جديدة لأماكن العبادة عرفت بالمدارس ، ثم انتشرت فى غرب العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى وهذا التغير فى الإسم لابد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر .

كذلك صاحب التغير فى الاسم تغيرات جوهرية فى التخطيط المعمارى . وقد اختلف علماء الآثار والمؤرخون فى وظيفة العمائر التى عرفت بالمدارس ، ولعل أقربها تلك المناقشة الحادة التى دارت فى الندوة العالمية لألفية القاهرة حول هذا الموضوع . وهو هل كانت المدارس فى أول نشأتها تؤدى وظيفة المدرسة أوهو مجرد تشابه فى الإسم لا فى الوظيفة . لذلك رأيت قبل أن أتكلم عن نشأة المدرسة ووظيفتها أن أذكر شيئاً عن أنواع الثقافات التى عنى المسلمون بها فى العصور الوسطى . ونستطيع أن نجمل هذه الثقافات فى قسمين كبيرين ، الأول ويشمل دراسة علوم الأقدمين ، وقد أطلق عليها العرب إسم علوم الأوائل ، وتشمل الرياضة والطبيعة وعلم الفلك والطب والفلسفة وعلم الديانات وما إليها وكانت تدرس فى عمائر تسمى (دار العلم) أما القسم الثانى من الثقافة فيشتمل على العلوم الاسلامية التى تقوم أساساً على القرآن وما جاء فيه من أحكام والحديث النبوى ، ومن هذين المصدرين تشعبت دراسات أخرى دينية وقضائية واجتماعية .

ومدينة نيسابور هى أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم) وكان ذلك فى عهد محمود الغزنوى فى القرن الرابع الهجرى ، وقد أنشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبو سعيد الأسطرلابى ومدرسة أبو إسحق الأصفهانى (١) المتوفى سنة ٤١٨ هـ . وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محلية مدة خمسين عاماً ثم قضى عليها تماماً بعد قتل وزير طغرل بك ، إلا أنها بعثت من جديد على يد نظام الملك أعظم (٢) رجل تولى الوزارة فى عهد السلاجقة قاطبة ، بل وأعظم وزراء الشرق فى عصره ، فقد ظل وزيراً لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه . وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية فى نشر المذهب السنى ومناهضه المذهب والشيعى ، وهكذا أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون إدارة الشئون الادارية وما إليها فى دولة السلاجقة .

وقد أنشا نظام الملك كثيراً من المدارس الأولى منها فى نيسابور وذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى وأعقبها فى بغداد وطوس والبصرة وأصفهان وهرات وبلخ (٣) وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس فى كل الولايات السلجوقية .

وما فعله نظام الملك فى إيران وجنوب العراق فعله الأتابكة فى الموصل ودمشق وفعله نور الدين وصلاح الدين فى شمال العراق وسوريا . وهكذا نرى هؤلاء الأمراء ذوى الأصل الكردى أو المغولى والمتعصبين المذهب السنى ، هم الذين نشروا المدارس فى غرب العالم الاسلامى .

نخلص من هذا أن الشيعة هم أول من أنشأ العمائر الثقافية التى كانت تعرف من قبل باسم دار العلم ، كما أنهم أول من أطلق عليها إسم المدرسة ، والغرض الأساسى

---

(1) L. Mass guou : Ler Nedreseh de Bagdöel (B I.F A O) ual,VII P P 78 - 9

(2) F q Brown : Lierary History of Pers : a, vol II p p 175-214

(3) Van Berchom : (C I A) Egypt p p 25 - 60

من إنشائها هو تدريس ونشر المذهب الشيعى . وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى إبان حكم محمود الغزنوى . وفى القرن الخامس الهجرى نشر الأمراء الأكراد والمغول ذووى المذهب السنى هذه المدارس فى غرب العالم الإسلامى كما جعلوها منشآت عامة تشرف عليها الدولة على خلاف مدارس الشيعة الخاصة فى القرن الرابع الهجرى .

وما قيل عن العالم الاسلامى عامة يمكن أن يقال عن مصر خاصة ، فكما نشأت المدارس فى شرق العالم الاسلامى على يد الشيعة ، على أنها معاهد خاصة ، نشأت فى مصر على يد السنين كمعاهد خاصة كذلك . فقد جاء فى ابن ميسر(١) أن الوزير رضوان بن الولخشى أنشأ مدرسة فى الاسكندرية سنة ٥٣٢هـ لنشر المذهب الشافعى. ويقول ابن خلكان(٢) أن ابن سلار وزير الخليفه الفاطمى الظاهر انشأ مدرسة سنة ٥٤٦ هـ فى الاسكندرية كذلك . ويذكر القلقشندى(٣) أن مسرور أنشأ مدرسة سنية بالقاهرة فى عهد الدولة الفاطمية ، فلما جاء صلاح الدين إلى مصر نشر هذه المنشآت الثقافية وجعلها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله . وكان غرضه الأول من ذلك هو القضاء على المذهب الشيعى مذهب الفواطم وذلك بنشر المذهب السنى عن طريق المدارس .

أما عن التخطيط المعمارى للمدرسة فمن الثابت أن التخطيط الأول كان عبارة عن إيوان واحد فى الضلع المواجه للقبلة أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فكانت تحتوى على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس كان معظمها مخصصاً لمذهب واحد ، فقد أحصى كرزويل ثمانين مدرسة فى سورية بينها ٣٣ مدرسة مخصصة للمذهب الحنفى و(٣١) للمذهب الشافعى وتسع للحنابلة وواحدة للمالكية ومن بينها ست مدارس للمذهبين هما الشافعية والحنفية .

أما عن مدارس مصر فقد أمدنا المقريزى بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية فقد أحصى عدد المدارس الموجودة حتى عصره فى القرن (١٥) وتبلغ (٧٢) مدرسة وقد قام الأستاذ كروزويل بترتيبها ترتيباً زمنياً ، ودرس الموجود منها حتى الآن فتبين له أن المدارس الأولى كانت ذات أيوان واحد لأنها كانت مخصصة لمذهب واحد . وأول مدرسة خصصت لمذهبين كانت المدرسة الفاضلية التى أنشأها

(١) ابن ميسر : نشر ماسيه Massé ص ٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ ص٤٣ ، ج ٢ص١٣ ، ١٤

(٣) القلقشندى : صبحى الأعشى ٣ص٣٥٦

صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ هما المذهب والمالكى والشافعى، وذلك بعد بناء المدرسة الأسدية، أول مدرسة خصصت لمذهبين فى سوريا سبقت مصر باثنتى عشرة عاماً. وتعتبر المدرسة الكاملية المبنية سنة ٦٢٢ هـ والتى ما تزال باقية، وأن كانت فى حالة خربة، أقدم مدرسة ذات أيوانين باقية حتى الآن. ومما يؤيد أن المدرسة الكاملية كانت تحتوى على أيوانين فقط، أن الجانب الشمالى الشرقى من المدرسة يشغله الآن حمام يعرف باسم حمام السلطان. وعلى خريطة الحملة الفرنسية يعرف باسم حمام بيصارى الذى حل محل قصر الأمير بيصارى الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٦٥٩ هـ .

والمدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين سنة ٦٣٩ والتى احتلت جزءاً من قصور الفاطميين، إذ يقول المقريزى أنها تقع بحى بين القصرين فى القاهرة وأنها من جملة القصر الكبير الشرقى، وهى مع احتوائها على أربعة أيوانات للمذاهب السنية الأربعة إلا أن تخطيطها يعتبر فى الواقع تكراراً للمدرسة ذات الأيوانين إذ أنها تتكون من مجموعتين تفصل بينهما حارة الصالحية الآن ويجمعهما مدخل المدرسة الرئيسى الذى تعلوه المئذنة .

وكان المقريزى دقيقاً فى وصفه للمدرسة إذ يقول عنها :

فبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين، فأبتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ١٥ ذو الحجة سنة ٦٣٩ وفى سنة ٦٤١ هـ رتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة وهو أول من عمل بمصر دروساً أربعة فى مكان واحد، ودخل فى هذه المدرسة باب القصر المعروف بالزهومة وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن .

والجزء الباقى من هذه المدرسة هو المجموعة الجنوبية التى تتكون من أيوانى الشافعية فى الشرق والمالكية فى الغرب أما المجموعة الثانية التى تتكون من أيوان الحنفية فى الشرق وأيوان الحنابلة الذى حل محل باب الزهومة فى الغرب فقد بنيت

مكانها مجموعة من الحوانيت وأن كانت واجهه المجموعة ما تزال موجودة وبحالة لا باس بها .

وتعتـــبر المدرسة الصالحية أول مدرسة فى مصر ذات أربعة أيوانات ولـكنها ليست متعامدة كما أنها ليست أول مدرسة فى العالم الإسلامى درست المذاهب الأربعة، فقد سبقتها المدرسة المستنصرية (١) فى بغداد بعشر سنوات والتى خصصت للمذاهب الأربعة بالإضافة إلى دارين أحدهما للحديث وأخرى للقرآن ، أى للقراءات السبع . ورغم تخصيص هذه المدارس الأربعة إلا أن تخطيطها غير متعامد كما أنها لا تشبه تخطيط المدرسة الصالحية .

على أننا نستطيع القول بأن أول مدرسة فى مصر احتوت على أربعة أيوانات متعامدة هى المدرسة الظاهرية التى بناها السلطان الظاهر بيبرس البند قدارى سنة ٦٦٢ هـ وتمت فى سنة ٦٦٢ هـ وتشغل قاعة الخيم وباب الذهب من القصر الشرقى الـكبير(٢) . وللاسف لم يبق من هذه المدرسة غير إيوان واحد هو الإيوان الجنوبى الشرقى وبه المحراب وكتلة من الواجهة مساحتها ١١ × ٥ متراً ملاصقة لضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بسوق النحاسين شارع المعز لدين الله الآن (الصاغة) . فقد تهدمت المدرسة سنة ١٨٨٢ عندما شق طريق بيت القاضى وقد ترك لنا المقريزى من التفاصيل الدقيقة ما يؤيد ما ذهبت إليه بحوث الأثريين فى القرن العشرين فهو يقول . وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان، منها. الشافعية

Massignon : Le Medraseh de Bagdad P.80 & Herzfeld : Archaologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet II.P.161. & Creswell: Origin of the Cruciform Plan of Cairere Madrossas .P.36.

(٢) المقريزى ج ٤ ص ٢١٦ (طبعه النيل) .

بالإيوان القبلى . والحنفية بالإيوان البحرى . وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى » .

على أن أول مدرسة خصصت للمذاهب الأربعة فى مصر وذات تخطيط متعامد هى المدرسة الناصرية . وهى تقع بجوار القبة المنصورية، فى شرقيها كان موضعها حماما فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعه . فابتدىء فى وضع أساسى وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها فلما خلع كتبغا وعاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ . فأمر باتمامها فكملت سنة ٧٠٣ هـ . وإلى هذه المدرسة نقلت واجهة كنيسة بعكا كان قد استولى عليها السلطان الاشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ . ونقلها إلى القاهرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى(١) .

وإذا جازلنا أن نقول أن المدارس إنما إنتشرت فى مصر فى العصر الايوبى لمحاربة المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى . فإن تصميم مدرسة السلطان(٢) حسن بن محمد ابن قلاوون التى بدأ إنشاؤها سنة ٧٥٧ هـ يدل دلالة واضحة على أنها إنشئت بقصد الثقافة والعلم بالاضافة إلى الدعوة إلى السلطان . وتتكون المدرسة من أربعة إيوانات متعامدة تحيط بالصحن خصصت للمذاهب الأربعة وبجانب كل من الايوانات الأربعة مدرسة .

وتبلغ مساحة المدرسه الحنفية على سبيل المثال ٨٩٨ متراً مربعاً . ويتكون تخطيط المدارس الاربعة جميعها

من ايوان وصحن تتوسطه فسقية ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن المدرسة وعلى الواجهات . وقد قرر السلطان حسن لهـــذه المدارس مدوسين

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) هرتس باشا : تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ .

ومراقبين وعين لهم مرتبات[1]. كما قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب وعين طبيبين أحدهما باطنى والآخر كحال يحضران كل يوم بالمسجد لمداواة من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة . ورتب ثالثاً جراحاً . وقد أرصد فى وقفتيه مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين وقيمه ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يصرف لهم فى الأعياد .

وهناك رأى للدكتور أحمد فكرى، لم يسبق إليه خاصاً بوظيفة المدرسة ، وقد جاء فى البحث الذى تقدم به سيادته للندوة العالمية وموضوعه خصائص عمارة العصر الايوبى ، فقد أثبت أن وظيفة المدرسة الرئيسيه لم تكن هى التدريس فحسب . فقد كانت المساجد تتخذ للتدريس منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك فى مسجد قباء . وفى مصر كانت الدروس تلقى فى جامع عمرو وفى الجامع الطولونى والأزهر والحاكم . بل أن وظيفة المدرسة الرئيسية فى العصر الايوبى كانت إعداد أماكن ملحقة بموضع التدريس لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب . وإنى إذ أوافق أستاذنا الدكتور أحمد فكرى على ما ذهب إليه من الناحية المعمارية وهو أن المساجد الجامعة التى كانت تلقى فيها الدروس على أقل تقدير منذ القرن الثانى للهجرة . لم تكن فيها أماكن لسكنى المدرسين والطلاب : وأننى أرى أن السبب الأساسى فى نشأة العمائر التى عرفت باسم المدرسة لم تكن فى الواقع القصد منها إيجاد أماكن للمدرسين والطلبة . وإنما يرجع إلى عامل سياسى دينى مذهبى » القصد منه هو نشر المذهب المخالف لمذهب الدولة الرسمى متخذين من اسم المدرسة ستاراً يتسترون وراءه . فالمدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبواسحق الاصفرانى التى أنشئت فى عهد محمود الغزنوى فى القرن الرابع الهجرى فى نيسابور كان القصد منها نشر المذهب الشيعى المناهض لمذهب الدولة العباسية السنى . كما أن اطلاق اسم

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٨٤ .

المدرسة على تلك العمائر التى أنشئت فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية فى القرن الخامس الهجرى على يد الوزير رضوان بن الولخش وابن سلار فى الاسكندرية وابن مسرور فى القاهرة لنشر المذهب السنى كان القصد منه مناوأة مذهب الدولة الفاطمية الشيعى. فلما جاءت الدولة الايوبية بعد دولة الفواطم وجدت فى هذه المنشآت المسماة بالمدارس بغيتها فى نشر المذهب السنى والقضاء على المذهب الشيعى ، فأكثرت من بنائها حتى بلغ ما أنشىء من المدارس فى العهد الايوبى أربعا وعشرين مدرسة فى القاهرة واثنتين فى الفيوم ، وجعلت منشآت عامة بعد أن كانت منشآت خاصة فى العهد الفاطمى . ثم أخذت فى تطوير عمارتها حتى أصبحت تفى بكل مطالب المدرسة من صلاة وتدريس وإيجاد أماكن للدارسين . وقد اكتمل التخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى ومن أحسن الامثلة لها مدرسة السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٥٧ هـ .

ومن العمائر الدينية الهامة عند المسلمين الخانقاوات التى انتشرت فى القرن الرابع للهجرة جعلت لايواء الصوفية فيها للعبادة .أما عن نشأة التصوف فيذكر المقريزى(١) نقلا عن أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا أفضلية فوقها فقيل لهم الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة التابعين ، وقيل لخواص الخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد. وانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله باسم متصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة وغلبت التسمية على هذه الطائفة فيقال رجل صوفى وللجماعة الصوفية .

وهناك رأى آخر فى نشأة التصوف فى الاسلام يورده المقريزى ولكنه لا يفسره

(١) المقريزى ج ٤ ص ٢٧١

قال : « المتصوفون ينسبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورأى ثالث قال : « أنه من الصفاء » .

أما عن الخامة مبان لسكنى هؤلاء المنقطعين ، فان أول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة وذلك إنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دوارا وأسكنهم فيها وجعل لهم مايقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وهناك نرى أن عمائر الزهاد نشأت منذ القرن الاول للهجرة ولكنها انتشرت فى شرق العالم الاسلامى فى القرن الرابع ، أما فى مصر فقد انتشرت المبانى المخصصة لإقامة الزهاد المنقطعين للعبادة الذين عرفوا بالمتصوفين فى العصر الايوبى ، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبى أول دارلهم .وقد عرفت هذه الدور فى مصر كما عرفت فى مشرق العالم الاسلامى باسم الخانقاة أو الخانكة .وهى كلمة فارسيه معناها البيت وقيل أصلها خونقاة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . وعرفت خانقاة صلاح الدين باسم الخانقاه الصالحية وهى بخط(١) رحبة باب العيد من القاهرة وكانت أولا دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء . فلما تولى صلاح الدين ، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من خارج البلاد ووقفها عليهم فى السنة تسع وستين وخمسمائة ورتب لهم معاشهم .

وتبين من الفقرة السابقة التى أوردها المقريزى ،أن خانقاه الصالحية كانت عبارة عن دار فاطمية قديمة أتخذت دارا للصوفية وبذلك نستطيع القول أن الخانقاة وجدت فى العصر الايوبى أما اتخاذ تخطيط معمارى خاص بها فلم يظهر ألا فى العصر المملوكى. ولعل أقدم الامثلة لها وأكملها الخانقاة التى بناها ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل أن يلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ فى بنائها سنة ٧٠٦ هـ وبنى بجانبها رباطا كبيرا

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٢٧٣

يتوصل إليه من داخلها وجعل بجانب الخانقاة قبة لـكى يدفن بها . ومن جملة شبابيك القبة كما يقول المقريزى الشباك الذى حمله الامير أبو الحارث البساسيرى من بغداد لما غلب الخليفة العباسى القائم بأمر الله ووضع بدار الوزارة الفاطمية ولاستمر فيها إلى أن عمر بيبرس الخانقاة المذكورة فجعله بالقبة .

وتقع الخانقاة بحى الجمالية وهى من جملة دار الوزارة الـكبرى وتبلغ مساحتها فدانا وثلث فدان . وتتكون الخانقاه من صحن على جانبيه الشرقى والغربى ايوانان معقودان وهى فى ذلك تشبه المدارس ذات الايوانين . أما الجانبان الآخران فقد أنشىء بهما خلوات للصوفية بعضها فوق بعض .

ومن العمائر التى انتشرت فى العصر الايوبى الاضرحة التى أخذت شكلا معينا وهو مربع مغطى بقبة . على أن اقامة الاضرحة ليست حدثا فى العصر الايوبى ، فقد أقامت الدولة الفاطمية كثيرا من الاضرحة وقصرتها على أهل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل السيدة نفيسة ورقية وعاتكة والجعفرى وبدر الجمالى وعرفت بالمشاهد، أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين . فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الانظار عن اضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة ، فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الامام الشافعى سنة ٦٠٨هـ واجرت عليها الماء من بركة الحبش ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الامام الشافعى وعرفت تلك المنطقة المجاورة بالقرافة الصغرى . ويعتبر ضريح الامام الشافعى اكبر الاضرحة فى مصر على الاطلاق وأقدم قبة خشبية بمصر وذلك اذا استبعدنا الاضرحة الملحقة بالمدارس والخانقاوات، اذ تبلغ مساحته ٤٠٠ متر مربع تقريبا وارتفاعه ٢٩ مترا . ومن الطريف أن قبة الامام الشافعى يعلوها عشارى طولها متران ونصف وقد اختلف المؤرخون والاثريون فى تفسير وجود العشارى فوق القبة ، فقال البعض أنها أعدت لوضع الحبوب للطيور والبعض الآخر قال أنها رمز على أن الامام الشافعى بحر فى العلوم والمعارف اعتمادا على قصائد

الشعر التي احتوت هذا المعنى والتي تذكر منها بعض أبيات من قصيدة البوصير صاحب البردة :

بقيـــة قـــبر الشافعي سفينـــة رست في بنـــاء محكم فوق جلمـــود
ومذ غـاض طوفان العلوم بقبره استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودي

وقال أبو الفتح موسى بن ملهم في القرن الرابع عشر :

مررت على قبـــة الشافعي فعاين طرفي عليهم المشاري
فقلت لصحبي لا تعجبوا فان المراكب فوق البحار

على أني أرى بالاضافة إلى المعنى السابق أنه يريد بالاضافة إلى وصفه بالعلم بأنه بحـــر العلوم والمعرفة أنه لايقال عن أئمة الشيعة ، الذين قصر الفواطم لفظ الامامة عليهم درجة ومنزلة .

ومن الاضرحة الهامة في العصر الايوبي ضريح السادات الثعالبة ، والخلفاء العباسين وضريح شجر الدر ، ثم ضريح الصالح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره أول ضريح الحق بمدرسة . ثم أصبحت القاعدة بعد ذلك الحاق القباب بالمدارس والمساجد والخانقاوات .

أما في العصر العثماني فقد اختلف تصميم المساجد اختلافا كبيرا عن العمائر الدينية الســـابقة فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة . وهنا لا نستطيع القول أن الوظيفة هي الدافع في تغيير تخطيط المساجد العثمانية ، بل هو دافع سياسي أرادت به الدولة العثمانية صبغ الولايات التابعه لها بتبعية فنية لتأكيد التبعية السياسية .

فقد اتخذ العثمانيون من طراز المصليات السلجوقية في القرن الخامس الهجري ساسا لعمائرهم الهامة(١) . وكان قوام التخطيط العثماني هو القبة الكبيرة المبنية من

(١) نجد وصفا مفصلا لمصلى (Barsiyan) بارسيان بالقرب من أصفهان للمقدسي في كتابه احسن التقاسيم .

Arthur Pope: Survey of Persian Art. Vol. II P. 990

الحجر عادة وتحبط بها من جميع الجهات فيما عـــدا جهه القبلة أيوانات محمولة على أكتاف تعلوها قباب ضخمة . ومن أحسن الامثلة لذلك مسجد سنان باشاومسجد محمد على بالقلعة الذى يعتبر نسخة من مسجد السلطان أحمد باسطنبول .

ومن العمائر الدينية الاخرى فى العصر العثمانى غير المساجد ، التـكايا الى حلت محل الخانقاوات فى العصر العثمانى إذ أنها تؤدى نفس الوظيفة أى أنها خاصة باقامة المنقطعين للعبادة ولـكنها تطورت بعـــد ذلك وأصبحت خاصة باقامة العاطلين من العثمانيين الوافدين على البلاد ،ومن هنا قيل عنها أنها مأوى (تنابلة السلطان) ،أى الـكسالى الذين لاعمل لهم .أما من حيث التخطيط فهى مجموعة من الطرز والاساليب المعمارية فهى أساسا تشبه تخطيط المنزل الاسلامى ذى الصحن المتسع وتوجد بالدور الأرض مجموعة من الايوانات والقاعات المتسعة ومسجد .وبالادوار العليا توجد غرف المبيت ثم يلحق بالتـكسية مطبخ ودورات مياه ومنزل لشيخ التـكية .